برجسون

عن محاضرات « جاك شيفاليه »

الاستاذ فى جامعة جرينوبل

— ١ —

نعتقد أن البحث الذى يتسع لهصدر هذه المجلة لا يكفى لتوضيح مذهب فيلسوف كبير مثل برجسون . ولكنا نرى أن من المفيد تأليف بحث من هذا القبيل يشرح ولو إلى حد جزئى عناصر البرجسونيسم . وهو المذهب الفلسفى الذى يشغل الأذهان الآن فى أوربا ويجمل بالمتنورين فى الشرق العربى ألا يجهلوه . وانا لنتسم من المذهب البرجسونى نفحة الفلسفة العربية .

ونعتمد فى نقل ملخص لمذهب هنرى برجسون عن المحاضرات التى ألقاها الاستاذ جاك شيفاليه فى ربيع سنة ١٩٢٤ . وهى تؤلف كتابا فى نيف وثلاثمائة صفحة من الحجم الوسط صدر أستاذ جامعة جرينوبل بأنه حين اريد منه تخصيص ستة دروس لشرح فلسفة برجسون لم يكن يملك من الوجهة المادية الزمن الكافى لاعادة الاطلاع على كل أجزائها ، ولا فى وسعه أن يبسط فى ستة دروس لا يستغرق كل منها الساعة تفصيل ذلك المذهب العظيم ، وما اشتمل عليه من وفرة التحليلات والآراء ووجوه التسلسل التى تتناول جميع اتجاهات الفكر البشرى . ومن أجل ذلك اضطر أن يحصر موضوعه لا فى جوهر المذهب ولبابه — فقد عد ذلك من الجرأة — وإنما أقتصر على بعض وجوه تلك الفلسفة — وجوهها المألوفة لديه أكثر من غيرها والأعظم ثمرة لأنها أتاحت له أن يتناول الجوهر منها ويصل الى اللباب ،

تأثير البيئة والعصر

يمتنع على الباحث ادراك الغرض من أى عمل فكرى وتقدير قيمته اذا عزله عن البيئة التى ظهر فيها وعن الناس الذين ألف لهم . وعن وجوه حبهم وكراهتهم واهتمامهم وعاداتهم فى التفكير وأساليبهم فى العمل وطريقتهم فى عرض المسائل وموقفهم

الاختيارى بازاء الناس والاشياء وبازاء الحقيقة نفسها . فان قيمة العمل الفكرى ليست فى ذاته فحسب وانما هى أيضاً فى قيمته لعصره . فأي مذهب عميق ثابت الأثر لايخرج عن كونه ثمرة تفكير رجل . هذا الرجل قبل أن ينتسب إلى عالم الأرواح ينتسب إلى عالم الأجسام . ومثل « برجسون » لايشذ عن هذه القاعدة التى يخضع لها ديكارت وافلاطون . إذن ينبغى لنا قبل أن ندرس المذهب ان ندرس الرجل ومن قبل أن ندرس الرجل يجب ان ندرس زمنه .

***

فلنمثل الحالة الفكرية فى فرنسا غداة الحرب التى وقعت سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ .

ان موقع بلادنا فى مفترق طرق المواصلات العظيمة التى تربط الجنوب بالشمال والشرق بالغرب وإن يكن ميزة لهافهو خطر أيضاً لانها مفتوحة لشتى وجوه التأثير — وهذه هى الميزة — لكى تهضمها وتؤيد بها فيض التنوير العام — وهذا هو الخطر — ولكى تغمرها تلك التأثيرات حين لاتجد لديها من القوة مايعينها على المقاومة وعلى الثبات أمامها معتمدة على عبقريتها الذاتية .

فان فرنسا فى سنة ١٨٧١ وإن كانت قد دلت على نشاط عجيب فى تضميد جراحاتها والنهوض من الكبوة التى لحقتها فى الهزيمة فقد كان الذكاء الفرنسى كان على مايظهر فقد ثقته فى نفسه بل فقد — ولعله الأدهى — ثقته فى قيمة الطرائق التى اتبعها والمبادىء التى دافع عنها . حالة وصفها « فلوبير » بالتدهور والسقوط والبؤس . وتساءل عما إذا كان من الممكن الايمان بالترقى والحضارة أمام ذلك التدهور؟ وبهذا الرأى لم يعرب فلوبير عن شعوره وحده وإنما أعرب عن شعور كبار المفكرين من معاصريه « تين » و« رنان » و« سولى برودوم » و« ليكونت دى ليل » . ومما يسترعى ان أولئك الذين ايقظهم الواقع من سباتهم والذين أرادوا أن يحتفظوا بحبهم لفرنسا وحدها بدلا من ان يجعلوه مقسما على العالم، أولئك انفسهم قد أدوا لفرنسا بقلب متحمس روحا مضطربا وفكرة متحيرة لم تطمئن ولم ترتكز . إذ كانت المانيا قد غزتنا بأساتذتها أكثر مما غزتنا بجنودها . وكانت الهزيمة قد حضت الفرنسيين على الالتحاق بمدرستها ليتعلموا سر الفوز منها كأن فوز القوت هو فوز الفكر . إذ ذاك ساد الأجنبى بلادنا .

وكان الانكليز فى الطليعة فان مذهب « ميل » التجريبى مكملا بمذهب « سبنسر » التطورى كانا قد عودا العقول على ألا ترى فى الانسان غير آلة متحركة ، وان تهبط بفكره وعواطفه وارادته وحياته الروحية كلها الى العمل الآلى فى التفكير او الصور الحساسة الخاضعة لقوانين الاشتراك خضوع الذرات الطبيعية لقانون الجاذبية . فلم يكن من الممكن ان تكون الحرية اذ ذاك الا مجرد وهم ينسب الى سفة مذهب الجبرية الطبيعى ولم تعد مبادىء العقل واسمى الافكار والمعتقدات الانسانية — فكرة العلة مثلا وفكرة الله — سوى عادات تتنقل وتعزز بالوراثة صارت مجرد صورة للارغام الفزيولوجى او الاجتماعى . تلك كانت النتائج التى افضى اليها منطقيا ذلك العلم الجديد للطبيعة وللروح الانسانية . وقد اعترف « سبنسر » فيما كتبه عن نفسه انه كان لانكار المعجزات والخلق (التكوين) وبالاختصار الاعتقاد فى كلية العلة الطبيعية نتيجة لا مناص منها وهى التصديق بان الكون وما يحتويه قد بلغا صورتهما الحالية بالانتقال فى عدة اطوار استلزامية من الوجهة المادية . فما هو الانسان فى كون هذه صورته فى الادراك ؟ قطعة بسيطة من الجبرية الطبيعية .

ولا شك فى ان الانكليز لم يستخلصوا من مذهبهم الاولى كل ما اشتمل عليه من النتائج ولم يكن ثمة اتلاف فى ادلتهم الخاصة بالانسان فاعترفوا بان علم الطبيعة الانسانية على خلاف علم النجوم لا يستطيع ان يضع قوانين مطلقة ولا يتكهن بشىء يتحقق حدوثه لانه لا يدرى جميع العلل ولا الاحوال التى يمكن ان تحدد مسلك الافراد . واتفى « ستوارت ميل » ان يكون قديرا وأن يعتبر علاقة العلة بالمعلول كعلاقة لازمة وان يحذف الحرية والمسئولية الانسانيتين هذا الى انه زعم فى شأن المسائل الاخروية المتعلقة بالله وبخلود الروح ان للمعتقدات التقليدية (الموروثة) مقامها فى نظريته . اما سبنسر فقد اكد بقوة ان غاية ابحاثنا تفضى بنا تجاه ما لا يمكن علمه وتبدى لنا استحالة ادراك ابسط الامور حين ننظر اليها فى ذاتها وما فى باطن الاشياء من السر الخفى الذى لا يستطيع الفكر ان ينفذ اليه .

غير ان اقامة الدليل على حقيقة تلك البراهين لم يتوصل اليه لا مذهب ميل التجريبى ولا مذهب سبنسر التطورى . فان الاول لم يوفق الى تفسير كيف يمكن فى مذهب الظاهرات ان يحتفظ بسلامة حرية الانسان ووحدته وذاتيته .

اما صيغة التطور التي وضعها سبنسر من قبل ان يبرهن عليها داروين فقد وهبت المذهب نوعا من الوحدة القياسية المصطنعة دون ان تقيم له قاعدة ميتا فيزيقية . فان سبنسر اجتهد فى ان يجمع عناصر التطور من ظاهرات المتطور كالطفل الذى يجمع اجزاء لعبة تحتاج الى الصبر . فلم يوفق الى تبيين الحركة التطورية نفسها فى تكوينها وترقيها بل انه لم يوفق الى تبيين مبدأها ذاته . وخلفنا اتجاه مذهب الجبرية الضيق العسير الذى تقبر فيه الحياة والفكر نفسه .

اذن كان ينقص ذلك المذهب الاختبارى الوضعى قاعدة ميتا فيزيقية . وقد تولى الالمان وضع هذه القاعدة واتوها لنا على اعتبار ان الانسان حيوان ميتا فيزيقى لا يستطيع ان يستغنى عن الميتا فيزيقا .

وقد تناولت طريقتهم الشرح بعد الوصف . ولما كان الوصف عندهم هادماً كان لابد بعد الهدم من البناء . برهنوا على ان العالم بجميع عناصره من المادة الى الحياة الى الروح بل العالم فى ترقية ذاته فى مدى الاطوار الطبيعية المختلفة خاضع لجبرية النواميس التى لا تقبل التبديل . ولكن عرضت مسألة تتعلق بماهية تلك النواميس وكيف تعمل ولم يكن من الممكن النظر اليها فى مذهب الظاهرات على انها من عمل الله الذى يقترن اختياره باستقلاله المطلق . اذ لو كانت تلك القوانين مجرد قرارات تصدر عن ارادته العظيمة وان هذه الارادة لا تقبل التبديل كما يرى ديكارت لم نبق فى هذه الحالة تجاه جبرية قاهرة مثل تلك التي صورها لنا البعض تتولى تدبير العالم ؛ جبريه تشبه كل الشبه ما عناه اللاتين « بالفاتوم » والاغريق « بالاناتكية » واذا لم تكن تلك النواميس وذلك الكون من صنع الله . اذن فما هما

هنا تجيبنا ميتا فيزيقية « كانت » قائلة ان عالم التجربة سواء كان فى مادته او فى صورته انما هو من صنع العقل البشرى .

وانت كيفما وضعت العقل رأيت الكون بالضرورة مقترنا به . فان الحركة المنطقية للعقل تقترن بحركة مبدعة هى فى الحقيقة مطابقة لها والمراد بالعقل هنا عقل الانسان فاتصاف العقل بالبصيرة والاطلاع على المجهول الذى جعله « كانت » ميزة الذات العليا واكبره على الادراك البشرى لان ذلك يفترض فى رأيه ان تكون المشيئة الاولى

فى تنظيم الكون من امره (امر الادراك) قد عزاه فيخت ومن بعده « شيلنج » بجرأة الى الانسان فنسبا الى معرفتنا قوة انتاج غير محدودة

قال فيخت ان الذات المطلقه هى مصدر نظام الكون وقال شيلنج انه العقل غير الذاتى وقال هيجل انه الافكار فى ترقيها من العدم الى الكائن وقال شوبنهور انه الارادة وقال هارتمان انه ما لا يوعى (اللاتنبهى) : غير ان كل ذلك منسوب الى الانسان بحيث اننا نخلق عالم التجربة على مثال ما نخلق عالم الرياضة . وان موضوعية الكون لا تكاد تختلف حين تبدولنا من جميع الوجوه عن موضوعية الرياضة . فهى اصطناعية ولازمة مثلها . وبالاجمال ان الحتمية التى تدبر الكون هى ثمرة ادراكنا المفهوم لا على اعتبار انه كقوة عاقلة وحرة خاضعة للواقع ولبارئها ولكن كضرورة باطنية خاضعة — وان تكن ذات سلطان — للقوانين التى تصدرها . قال شيلنج ان التفلسف فى الطبيعة معناه خلق الطبيعة .

ومن الممكن ألا يكون الغرض من هذا النظر الايديالى ادعاء ان الانسان يقوم مقام الله ويصنع صنعه . فقد يكون بطلان الدنيا او خلقها بالعقل مجرد حجة لتنزيه جوهر المعرفة اى الحق . على ان النظر المطلق الى المثل الاعلى مرتبط فى الواقع بوحدة الوجود ، فان سبينوزا فى مذهبه قال بالتبعية اللازمة بين الكون والعقل ونفى الحدوث الاولى او الخلق . وفيما عدا ذلك فقد حاول ان يجعل من الذكاء الانسانى مقياسا مطلقا لما يقبله الادراك وجعله متحدا بالعقل الذى يفكر والذى يعد العالم بالضرورة من صنعه . كذلك اقام سبينوزا — سواء اراد او لم يرد — الانسان مقام الاله

اذن لا يستغرب ان يظهر المذهب المثالى الالمانى وان يؤول على انه تأليه للانسان من قبل ان يستخدم فى آخر الامر لتبرير العمل الوحشى او القوة المنظور اليها على انها مطابقة للعقل والهية . وهو ما اعترف به « هنرى هين » . فقد آمن الكثير بالفيلسوف « هيجل » حين سمعوه يؤكد ان الانسان اله . وجاء اشياع « سان سيمون » بناء على هذا الرأى فاعلنوا الوهيته . وكان الصدى الاخير لذلك التقليد الهيجلى ما جاء فى خطبة للاشتراكى « جول جيد » فى مجلس النواب (٢٤ يونيو سنة ١٨٩٦) بان الانسان يوشك ان يكون الها .

هذا الخليط من مذهب الحتمية ، الديترمنيسم ومذهب النظر الاعلى فى وحدة

الكون قد أفضى الى مذهب المونيسم - وحدة المادة والوجود - الذى وصفه « هيكل بانه صلة بين الدين والعلم . يفرغ الدين فى العلم . و يعد ائتلاف المتناقضات فى كينونة الخالق الازلى وينفى كل اقتران وكل اختيار . و ينزل بالذات الهية كانت او بشرية الى ما تحتمه الطبيعة على اعتبار انها الاله الحقيقى

وقد اوحى هذا المذهب - وحدة المادة والوجود - الى (تين) و(رنان) اى الى المفكرين اللذين كان لها اعظم تأثير على الذريات فى خلال حربين واللذين لم يلبثا ان

ثم كان مذهب المونيسم — وحدة المادة و الوجود — مصدر وحى للمفكرين « تين » و« رنان » اللذين كان لها أعظم تأثير فى عصرهما الذى تخلل حربين و اللذين لم يلبثا أن تالا مع « داروين » الحظوه لدى الجماهير . وادى لها خزانة الافكار العامة التي عاش بها ذلك العصر . وكانت النتيجة أن تولدت تلك الصيغ المعروفة التى ترددت كل مكان : الادراك الحسى نوع من الهذيان الصادق . ليس الحقيقى سوى وهم مؤتلف . العقل مختزن صور شتيته كاوجل الاخطبوط . الفضيلة والرزيلة انتاج كالسكر والزاج . ليس الانسان فى الطبيعة عالم فى عالم بل هو جزء من كل . العبقرية كأبسط حالة أدية تتولد من العنصر والبيئة والظرف . ليست الطبيعة والتاريخ سوى امتداد الضرورة العامة . العالم يؤلف كائن مفرد لايقبل التجزئة كل الكائنات أعضاؤه . الله هو طبقة المثل الأعلى . هل الإله موجودا وغير موجود ؟ ان مسائل الوجود تتجاوز طاقتنا . كل شيء يوجد فى الانسانية وفى الطبيعة وليس للخلق (التكوين) مكان فى سلسلة العلل والمعلولات . ان مهمتنا تنحصر فى تنظيم الانسانية عليا أولا ثم تنظيم مسألة الله . هناك عقيدة واحدة تسيطر على هذه الدمن وهى عقيدة العلم أو بعبارة أفضل « دين العالم » . الايمان بالمستقبل وبالترقى اللانهائى للفكر البشرى الذى يسجله التاريخ والذى يكلل بفوزه نهائى هو سيادة الله الكاملة . الخ الخ

وقد آل الأمر بهذه العقيدة التى اذاعها « رنان » الى انها هدمت نفسها بنفسها فان فقدان الايمان بالحقيقة يفقد المرء كل ايمان . وكان المكان الذى تبوأته ينحصر فى الانكار الذي يسمى أيضا تسامحا وحرية رأي . التسامح فى كل الحقائق أو التسامح فى كل الاخطاء وكلاهما شيء واحد (حسب رأى أرسطو) بل ليس التسامح فى الحقيقة .

فان حرية الرأى تقبل جميع المذاهب التى انتجها الفكر البشرى مع استثناء ذلك المذهب الذى يقول بوجود الحقيقة وانها واحدة مستقلة عن الباطل وإن على الانسان ان يخضع لها لان العقل اعتاد الانقياد للحق . والمبدأ الميتافيزيقى لتلك العقيدة وغايتها تأليه العدم . قال « رنان » ان الفلسفة المثالية الحديثه احلت التشكل الذى لا آخر له محل الاله فى العقائد الروحية الاله اليهود والمسيحيين.

ولكن ما هذا الذى نسمعه من « رنان » فى صلاته على الاكروبول؟ اسمعوا « بحرز اخر من النسيان يحملنا الى هاوية مجهولة . ايتها الهاوية لانت الله الواحد .. وما من شىء فى هذه الدنيا إلا وهو رمز وحلم . ان الآلهة تمضى كالناس دون ان يكون من الخير خلودها . ولا ينبغى ان يكون ايماننا غلا يقيدنا . انا نفي ما علينا نحوه متى حرصنا على ان نلفه فى الكفن الارجوانى الذى تنام فيه الآلهة الفانية .

على ان فى الامكان الاطلاع على افكار اخري جديدة وقديمة من خلف تلك المذاهب الرسمية . افكار اعمق وإن كانت اقل ظهوراً . تنطوى على بذور من الحقيقة ثمنية . فانه فى الوقت الذى استبدل فيه البعض تحت اسم العلم مجموعة من الحقائق المؤيدة بالنظر او البرهان بنوع من المدرسية المتحدثة التى نشأت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حول آراء « غاليليو » الطبيعية كما نشأت المدرسية القديمة حول مذهب ارسطو . اقامت فئة من العلماء الحقيقيين وفى طليعتهم « كلود برنار » فى كتابه « مقدمة الطب التجريبى » الدليل على ان الحتمية التى يرتكز عليها العلم من مبادىء العقل

يتبع

عبد الحميد سالم